بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله الذي أحصى كل شيء كتابًا، وأعد للمتقين جزاء حسابًا، وألهم ابن دم أن يضرب في الأرض ويكدح لنفسه كدحًا، ويجوب مناكب البلاد ويسعى بدرك نجحا. والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله الذي بهرت آيات نبوته الناظرين، وبزغت شمس دينه فأفل منها سها الكافرين، ونادى بالحق فزهق الباطل وامحى ظلله، وأنذر فأرهب وبشر فأرغب وطاب مقاله ومقوله ومقوله، خير من دعا وأمر، ونهى وزجر، ووعد فأنجز، وقال فأطنب أو أوجز، أرشد فهدى، وأجدى من اجتدى، صلاة وسلامًا دائمين متلازمين متلائمين على آله وعترته، وأصحابه وعشيرته، ما سرى الساري، وطلعت الدراري.

أمَّا بعدُ؛ فإن الأسفار طالما ذكرها الذاكرون، وبالغ في وصفها الواصفون، فمدحها من علت مروءته، وسمت همته، وذمها من قصر عنها، ولم يجن منها؛ فمنهم من شبه صاحبها ببدر إن لم ينقل لم يكن في التيجان منضودا، وبهلال إن لم يسر لم يصر بدرًا مشهودًا، ومنهم من زعم أنها الحاملة على الذل، المضيعة لحسب المرء والموقعة في الضل، والخمول وعدم الشكل، وإن الشيء إنما يرزن إذا كان في مستقره، حتى عرفوا الظلم أنه وضع الشيء في غير مقره. ومعلوم أن محل العرب مباين لمحل العجم، فكأن أحد الفريقين إذا جاوز محله فقد ظلم، إلى غير ذلك من تناقض العبارات والاعتبارات، كما جرت بذلك عادة

البلغاء في المحاورات؛ إذ كل حكم وقضية من القضايا الجارية أطالوا فيها المقال، وجالوا فيها من حيث لا مجال؛ كاعتزال الناس والانفراد عنهم، والمخالطة لهم والأخذ منهم؛ فبعضهم آثر الأول، وود لو يقضي عمره على قنة جبل، وبعضهم شبه الزحام بمنهل عذب لذي الأوام. وأمثال ذلك لا تحصى، ولا تعد ولا تستقصى، فكان الركون إلى ما قالوا، والمعول على ما فيه جالوا وأطالوا غير هاد وحده سبيلًا قويمًا، ولا شاف كليمًا، إلا إذا امتحن الناقد اللبيب بنفسه أي الفريقين أصدق قيلًا، وأهدى سبيلًا، واطلع على ماذا حملهم على الذم والقدح، والثناء والمدح، وماز المعلم من الجهل، والحالي من المعطل، فهو حينئذ خبير وأي خبير، غير مفتقر إلى ناصح منهم ومشير، والحاصل أن لكل امرئ شأنًا يعنيه، ومطلبًا هو مقتفيه، وأن ما قضى الله يكون، سواء أذم الذامون أم مدح المادحون.

هذا وقد كنت في عنفوان شبابي، وجدة جلبابي، وأزهار سني، وازدهار ذهني، لهجًا بالسفر والاغتراب، والترحل عن الوطن والأصحاب، إلى بلد ينضر فيه غرسي، وتطيب فيه نفسي، واقتبس فيه من مصابيح العلم قبسًا، وألفى إذ الدهر لي موحش خليلًا يصادقني مؤنسًا، حتى أتتني أعمال حابطة إلى جزيرة مالطة، فألفيتها لا كما أملت، وكابدت منها ما لا يفي بما عنه ترحلت، فعنَّ لي أن أظهر ما بطن منها، وأكشف مخبأها لمن رغب فيها أو عنها، فألفت فيها كتابًا سميته «**الواسطة في معرفة أحوال مالطة**»، ثم لما رأيت أن هذا الشرح لا يروي غليلًا، ولا يشفي عليلًا؛ لكونه مقصورًا على وصف الجزيرة، وهي من الصغر بحيث لا تمكن الواصف من أن يطيل فيها من القول مأثوره، أو يضيف إليه فوائد تاريخية خطيرة، ظل خاطري حائمًا على مورد التأليف، وقلبي هائمًا

بسفر طريف، إلى أن مكنتني التقادير الممكنة، بعد لبثي على تلك الصخرة الدرنة نحو أربع عشرة سنة من السفر إلى بلاد الإنكليز المتمدنة، فاغتنمت هذه الفرصة عجلًا، وظننت أني أدركت أملًا، وعولت على أن أشفع تأليف الواسطة برحلة يعظم وقعها، ويعم نفعها، فصرت أقيد ما عنَّ لي من الخواطر في وصفهم وسنح، وتارة أنقل من الكتب ما ليس فيه للفكر مسرح، وللطرف إليه مطمح؛ فإن شئونهم متشعبة، وأحوالهم مستغربة، وأنحاءهم شتى، ومقاصدهم تستغرق وصفًا ونعتًا. ويعلم الله أني مع كثرة ما شاهدت في تلك البلاد من الغرائب، وأدركت فيها من الرغائب، كنت أبدًا منغص العيش مكدره، كمن فقد وطره، ولزمته معسرة، لا يروقني نضار ولا نضرة، ولا نعمة ولا مسرة، ولا طرب ولا لهو، ولا حسن ولا زهو، كما أني كنت دائم التفكر في خلو بلادنا عما عندهم من التمدن، والبراعة والتفنن، ثم تعرض لي عوارض من السلوان، بأن أهل بلادنا قد اختصوا بأخلاق حسان، وكرم يغطي العيوب ويستر ما شان، ولاسيما الغيرة على الحرم، وصون العرض عما من هذا الصوب يذم، ثم أعود إلى التفكر في المصالح المدنية، والأسباب المعاشية، وانتشار المعارف العمومية، وإلى إتقان الصنائع، وتعميم الفوائد والمنافع، فيجفل ذلك السلوان، وأعود إلى الأشجان. وكذا كانت حالة السيد الأكرم المؤنس، أمير الأمراء حسين باشا من أمراء تونس، فإنه لبث في باريس مدة طويلة، وخواطره ببلاده أبدًا مشغولة، فكان يلازمه الأرق، والهم والقلق، حتى مكنه اليوم الباري تعالي من تحسين تلك الحاضرة، وإمدادها بالمرافق الوافرة، فلله الحمد على بلوغ إربه، وحصول مطلبه، فإن تبهية الأمصار الإسلامية، أشهى إليَّ واللهِ من كل أمنية، كيف لا وعن المسلمين كان أخذ التمدن والفنون في

الأعصر الغوابر، وكانوا قدوة في جميع المناقب والمفاخر، والمحامد والمآثر. وهذا التفكر والأسف، والتفكن المستأنف، كثيرًا ما حملني على الإضراب عن التأليف، لعلمي أن كلامي فيه لا يكون إلا دون التاريف والتعريف، وأنى لمثلي أن يدرك جميع ما عند أولئك الناس من الاختراع، والأحداث والإبداع؛ إلا أن رغبتي في حب إخواني على الاقتداء بتلك المفاخر، هي التي سهلت عليَّ هذا الخطب وأطالت باعي القاصر، فأمسكتُ القلم من بعد إلقائه مرارًا، وتوكلت على الباري المعين أن يكشف لذهني ما عنه توارى، ويدني إلى فكري ما شط عنه مزارًا، وحررت هذه الرحلة وسميتها «**كشف المخبا عن فنون أوربا**» وذلك لأني لم أقتصر فيها على شرح ما عند الإنكليز وحدهم من الفنون؛ بل استطردت إلى وصف غيرهم أيضًا، والحديث ذو شجون.

وليكن معلومًا عند القارئ والسامع والداري، أني في كل ما وصفت به الإنكليز والفرنسيس وغيرهم من أهل أوربا، لم يمل بي هوى ولا غرض بغضًا أو حبًّا؛ إذ ليس لي حدل مع أحد منهم ولا ضلع، ولا انحراف ولا ميل ولا ضر ولا نفع، وإنما رويت عنهم ما رويت، وحكيت ما حكيت، بحسب ما ظهر لي أنه الصواب، فلا ينبغي أن يحمل قولي على ضغن أو إغضاب. وأعوذ بالله من أن أبخس الناس أشياءهم، فأتعمد القول فيما شانهم وساءهم؛ إلا أنه لا ينكر أن الإنسان محل النقص والمعيب، وأنه قلَّ من ينظر إلى نفسه بعين المصيب، وكذا كنت أقول للإنكليز، فلم يكن أحد منهم ينكر قولي أو ينسبه إلى التعجيز. ثم أني بعد الفراغ من تحرير الرحلة المشار إليها عرضت عوارض كثيرة، وأحوال خطيرة؛ كحرب أمريكا وبولاند مثلًا، وكزيادة في عدد سكان الممالك أو في أعمالهم مما استعظمه الناس وصار لهم شغلًا، من جملة ذلك ما

جرى في الممالك الإسلامية من التحسين والتنظيم، والترتيب والتتميم؛ إلا أني رأيت إيداعها في الرحلة نصبًا مستأنفًا، وشغلًا لا ينتهي ولا يستوفى، فصرفت عنه صفحًا، وصدفت كشحًا، إذ حوادث الدهر أكثر من أن يحصرها ذكر، أو يحيط بها زبر.